بين الزاوية المتوكلية بظاهر فاس والخانقاة الناصرية بظاهر القاهرة

أ.د. عبد الهادي التازي•

لقد كنت أتوق، وانا أقوم بتحقيق رحلة ابن بطوطة بعد الحيف الذي تعرضت له من بعض الذين اهتموا بها، كنت أتوق إلي الوقوف على موقع اثري هام بمحافظة قليوب، وبالذات في سرياقوص، حيث توجد الخانقاة (يعني بها الزاوية) التي أنشأها السلطان محمد بن قلاوون في ذلك المكان سنة 723 = 1323...

لماذا كنت أتوق إلي ذلك؟ لأن الرحالة المغربي كان وقف عليها شخصياً،ويظهر انها أخذت بلبه عندما قال عنها بالحرف:"وأبدع زاوية رأيتها في المشرق زاوية سرياقوص".

ذكرها ابن بطوطة في مناسبتين اثنتين في معرض حديثه عن زاوية مغربية معاصرة أنشأها العاهل المغربي السلطان أبو عنان الملقب بالمتوكل على الله...[1]

وبما ان الزاوية المغربية لم يبق لها اثر سوى بعض الأطلال فقد حرصت على ان اعرف الخانقاة المصرية لأقوم بالمقارنة بين الأثريين التاريخيين، وهذا ما أمكن القيام به في ربيع عام 1999 بمساعدة الزملاء المشرفين على الآثار الإسلامية ممن سبق لي التعرف عليهم في مناسبات سابقة.

ووصلنا إلي عين المكان فإذا بي أمام الخانقاة الناصرية وكأنها تضامنت مع الزاوية المتوكلية بفاس، كلتاهما اثراً بعد عين: ليس غير تضاريس هناك خارج جامع السلطان الاشرف برسباي.[2]

اما عن الخانقاة التي ارتسمت في مخيلة ابن بطوطة فإن الكلام عنها يكاد يكون معدوما إن يكن قد اشتبه بالكلام عن مواقع اثرية اخرى.

وقد تأكد لي ما كنت سمعته من ان اخواننا الآثاريين المصريين لم يهتموا كثيراً بما يوجد خارج مدينة القاهرة والاسكندرية من منشأت حضارية في بعض القرى...

ولابد ان نذكر هنا ان اختيار هذا الموقع من قبل الناصر لإنشاء مثل تلك الخانقاة لم يكن اختياراً ارتجالياً، ولكنه اختيار مدروس بإتقان فإن الموقع يعتبر ملتقى للمسافرين الذي يريدون السير في القافلة إلي الشام فيشترون مختلف الاشياء الواردة من القاهرة التي لا

• أ.د. عبد الهادي التازي، عضو اكاديمية المملكة المغربية وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

[1] رحلة ابن بطوطة: قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي عضو اكاديمية المملكة المغربية، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث 1417 =1997. رقم الايداع القانوني 1997/321، ج1، ص 84-99.ج IV ص 353.

[2] د. حسني محمد نويصر: العمارة الاسلامية في مصر عصر الايوبيين والمماليك، مكتبة زهراء الشرق - القاهرة ، رقم الايداع 96/11433، ص 539.

تبعد سوى بضعة اميال على ما يكشف عنه الحسن الوزان المعروف بليون الافريقي الذي اطلق على المدينة جميعها اسم (الخانقاة).[3]

سؤالي اليوم إلي زملائي من المهتمين بأثار مصر الإسلامية عما كتب عن خانقاة سرياقوص بالذات؟ تصميمها،مرافقها؟ الهدف من إنشائها؟

وحتى اساعدهم على الوصول إلي ذلك، فاني استاذنهم في ذكر الوصف الدقيق للزاوية المتوكلية التي يتأكد لي انها كانت على نحو قريب من زاوية سرياقوص كما قد نفهمه من الرحالة المغربي ابن بطوطة...

الوصف الدقيق الذي اتحدث عنه ورد في تأليف معاصر للسلطانين: الملك الناصر في مصر والملك ابي عنان بالمغرب...

ولعل قراءة ما ورد في هذا التأليف تساعد علماء الآثار بمصر على تقفي آثار الاطلال التيب وقفنا عليها خارج جامع السلطان برسباي، في الفضاء الذي كان يمتد على مدى بضعة فدادين...

لقد كان المصدر الوحيد الذي تحدث بإسهاب ـ عن الزاوية المتوكلية بظاهر فاس في عهد بني مرين هو ابن الحاج النميري المتوفى بعد عام 774 =1373 في كتابه (فيض العباب)، وذلك في المخطوطة الفريدة التي توجد لهذا الكتاب في الخزانة الملكية بالرباط، فماذا كان عن الزاوية المتوكلية في هذا الكتاب الذي طبع اخيراً[4] ؟

يذكر ابن الحاج ان اعمال البناء في الزاوية المتوكلية انتهت على اثر عودة السلطان من حركته الجميلة للآثار، وكان ابن الحاج يقصد دون شك حركة السلطان ابي عنان الداخلية التي قام بها للرباط وسلا في النصف الثاني من عام 757هـ 1356م. وهنا نعت ابن الحاج الزاوية:

- شيدت على شاطئ الوادي: وادي فاس ...
- وانه قام بقبليها جامع جامع...
- وتقابلها بالجوف قبة صعدت في الجو...
- تدور بها اربعة براطيل بديعة الاختراع
- وقد امتد من الجامع إلي القبة صهريج بديع الطول والعرض...
- وبشاطئ هذا الصهريج اسدان صنعا من الصفر يخرج الماء من افواههما...
- وفي كل ركن من اركانها باب يشرع إلي دار بديعة البناء...
- الباب الذي بالجوف يشرع إلي دار الوضوء...
- الديار الثلاث إحداها للإمام والثانية للمؤذن والثالثة للناظر...
- تتصل بالزاوية دار معدة اانازلين الواردين...

---

[3] الحسن محمد الوزان الفاسي: ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، طبعة ثانية، دار الغرب الاسلامي 1983 ص 234.

[4] فيض العباب لابن الحاج النميري، دراسة واعداد د. محد بن شقرون، دار الغرب الاسلامي 1990 ص 206-207 وما بعدها.

- تقابلها دار اخرى معدة للطبخ...
- للزاوية والدارين المتصلتين بها باب عظيم من جهة الشرق ناظر إلي الحضرة العلية...
- بمقربة من هذا الباب توجد الصومعة التي تزاحم الكواكب...
- يتصل بالزاوية من جهة الغرب والجوف روض اريض...
- وبغربي الزاوية صهريج عميق، للماء في جنباته لعب وتصفيق...
- قامت بإزاء الزاوية سانية بديعة... تزود الفقراء بمائها...
- عملت على النهر ناعورة لأن السانية، قد لاتبالغ في العطية...

وبعد هذه الاشارات عن الزاوية المتوكلية، يذكر ابن الحاج ان السلطان امر بكتب ظهير (مرسوم ملكي) يعين فيه ابو عنان جرايات القائمين بالوظائف... ويرتب جملة من الفقراء الصوفية ليقيموا هناك للذكر... وكذلك تعينت الجرايات للخدم المتزوجات ليقوموا بتنظيف تلك الديار وخدمة الزوار وعمل الاطعمة العميمة الإيثار...

ويفيد ابن الحاج انه هو الذي كتب بخطه تلك الظهائر، وبعد ان يقدم لنا ابن الحاج نموذجا من الشيوخ الواردين والصلحاء القاصدين للزاوية من الذين قام هو بزيارتهم اواخر عام ثمانية وخمسين وسبعمائة من غير ان يستطيع التعرف على اسمه، ولا شيخه الذي سلك على يديه بعد ذلك يذكر ان هذا الشيخ كان ينتظر رؤية امير المؤمنين الذي استدعاه وآنسه.

ومن المهم ان نعرف ـ عن طريق ابن الحاج ـ ان المقدم الذي أسندت إليه مشيخة الزاوية المتوكلية وإمامة جامعها كان هو الشيخ أبو عبد الله بن ابي مدين، المبعوث المغربي الذي كان حمل إلي الديار الشرقية المصحف العظيم الذي نسخه السلطان أبو الحسن بذات يده، واهداه إلي بيت المقدس بعد ان اتمه بمدينة فاس عام خمسة واربعين وسبعمائة حيث راحت مع الركب الرسمي للأميرة مريم[5]...

ويذكر ابن الحاج ان الشيخ ابا مدين،لما عين في منصب مقدم الزاوية رأى ان يشهر امرها في الافاق، فاستدعى اهل فاس إلي الحضور بجامع القرويين الذي غص بالمستجيبين للدعوة، فجر يوم من ايام الله حيث برز مفتي فاس الشيخ ابو الحجاج يوسف بن عمر الانفاسي الذي خلف صدى كبيراً في كتب التاريخ المغربي والذي كان السلطان ابو عنان قدمه للإمامة بجامع القرويين سنة خمسين وسبعمائة[6]، هذا الشيخ الانفاسي قام بإلقاء خطاب بالجامع القروي افصح فيه بالثناء على امير المؤمنين بحضور سائر شيوخ الزوايا الاخرى.

---

[5] د. التازي: القدس والخليل في مذكرات الرحالة المغاربة، طبعة ثانية،منظمة الايسيسكو 2004.

[6] د. التازي: جامع القرويين المسجد الجامعة بمدينة فاس (ثلاث مجلدات) طبعة اولى بيروت 1972،طبعة ثانية، الرباط 2000،ج11،ص494.

ولم يفت ابن الحاج ان يسجل حضور "ربات الحجال،المحميات،ببيض النصال" في هذه التظاهرة الكبرى التي نعتقد انها كانت الاولى من نوعها في تاريخ المدن الإسلامية...
وقد افضى الجمهور إلي الزاوية التي اشتهر ذكرها في الاقطار والامصار حيث تميز هذا الحفل الافتتاحي بقصيدة مدح فيها الشاعر الحسناوي السلطان ابا عنان وذكر محاسن الزاوية موضوع الحديث...[7]
وقد انتهى هذا الحفل الكبير بتقديم طيافير الطعام الملوكية التي احضرت وعليها المناديل الساطعة البياض والسباني المرقومة كانها ازهار الرياض على حد تعبير ابن الحاج، وانفض هذا الجمع عن مشهد تهادت البلاد اخباره... واستتب امور الزاوية احسن استتاب...
ومن المهم ان نسجل هنا ـ للتاريخ ـ ان هذه المعلمة العظيمة ظلت ـ حسب المصادر التاريخية قائمة الذكر حيث وجدنا لها صدى في اعقاب المعركة العظيمة التي تحمل اسم (معركة الملوك الثلاثة) حيث مات فيها بالفعل ثلاثة ملوك: ملك البرتغال ضون سيباستيان بطعنة من احد المغاربة، والعاهل المغربي السلطان المولى عبد المالك الذي مات نتيجة فرحته بالنصر، والامير محمد الملقب بالمتوكل على الله، وكان حليفاً للبرتغال! تلك المعركة هي (معركة وادي المخازن) التي شهدها المغرب في صيف 986 =1578...
في اعقابها قرانا عن مصرع القائد الموريسكي سعيد الدغالي حيث ذكر اسم الزاوية دون نعتها بالمتوكلية لما ان اسم المتوكل على الله كان اسما كريهاً عند الناس باعتباره كان في خدمة ضون سيباستيان على ما قلنا.[8]
وفي هذه الزاوية ايضا... وفي صيف 987 = يوليه 1579 استقبل السلطان أحمد المنصور الذهبي السفارة البرتغالية الاسبانية التي وردت إلي المغرب تلتمس تسليم جثة العاهل البرتغالي ضون سباستيان صريع المعركة سالفة الذكر...[9]
وبعد هذا قرأنا عن الكمين الذي نصبه المجاهدون للمحتلين لمدينة سبتة يوم الاحد 22 محرم 997 =11 دجنبر 1588 حيث سبق الاسرى إلي مدينة فاس، وهناك استعرضوا على مقربة من تلك الزاوية...[10]

---

[7] نعرف من شيوخ الحسناوي ابا العباس أحمد بن موسى البطرني كما نذكر من تلامذته اسماعيل بن الاحمر... وقد ادركه اجله سنة خمس وتسعين وسبعمائة، ولقد كان ابن الحاج المصدر الاساس الذي تحدث عن هذا الشاعر الذي كنا نتوق إلي التعرف على نماذج من شعره ـ نيل الابتهاج ص 47 نقلاً عن الشيخ اسماعيل ابن الاحمر في فهرسته،درة الحجارة 183،1 ـ سلوة الانفاس III ،254،موسوعة اعلام المغرب:تنسيق محمد حجي،طبعة دار الغرب الاسلامي 1417 - 1996.

[8] د.التازي: نهاية الموريسكي سعيد الدغالي حسب مخطوطة لم تنشر لابن العياشي وزير السلطان المولى اسماعيل، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية: ندوة الموريسكيين في المغرب، شفشاون 1421 =1900 ص 211.

[9] د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج3،ص 125-142، رقم الايداع القانوني 1986/25.

وقد ظل ذكر الزاوية لما بعد هذا التاريخ حيث قأنا عنها في "ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض" تأليف المقري التلمساني[11] الذي كان يتردد على مدينة فاس قبل ان يغادرها إلي المشرق اواخر عام 1027 = شتنبر 1618...

هذا المصدر اورد نظما مما قاله أبو عبد الله ابن جزي:

هي ملجأ للواردين ومورد — لابن السبيل وكل ركب ساري
دار على الاحسان شيدت والتقى — فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي آثار مولانا الخليفة فارس — اكرم بها في المجد من آثار
لازال منصور اللواء مظفراً — ماضي العزائم سامي المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديم با — بهم العلي: محمد بن جدار
في عام اربعة وخمسين انقضت — من بعد سبع مئين في الاعصار

وقد اصحب هذا الشعر بفقرة جد هامة تقول: وهو، أي النظم مكتوب عليها إلي قرب هذا التاريخ.

وان هذا التاريخ الذي يشير إليه المقري كان يصادف ايام الصراع الرهيب بين ابناء السلطان أحمد المنصور الذهبي، هذا الصراع الذي لا تخفى اثاره على الذين كانوا يترددون على الزاوية.

ونعتقد ان السبب الاخير الذي اتى على الزاوية هو زلزال ليشبونة 1 نونبر 1755 = 26 محرم 1169... هذا الزلزال الذي اتى ايضا على معظم معالم فاس على ما تشهد به المصادر المغربية والاجنبية على السواء...[12]

ذلكم ملخص المعلومات التي قدمها ابن بطوطة في رحلته وابن جزي في نظمه وابن الحاج في فيضه والقشتالي في (المناهل)، عن المؤسسة الحضارية الكبرى.

وقد تقت، وانا اقوم بتحقيق رحلة ابن بطوطة، إلي ان احقق غرضين اثنين:

أ,لاً: الوقوف في ظاهر مدينة فاس على موقع الزاوية المتوكلية على مقربة من الوادي وإعداد تصميم لها من خلال الوصف الذي قدمه إلينا ابن الحاج، وفي هذا الصدد قمت بالاتصال مع اعلى الجهات المسئولة عن التراث في المغرب من اجل إعادة الحياة لهذه

---

[10] القشتالي: مناهل الصفا ، تحقيق عبد الله كنون، المطبعة المهدية تطوان 1384 =1964 ص 48-50.

د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج8،ص153. مصدر سابق.

11 ج ثالث صندوق احياء التراث الاسلامي: المشترك بين المملكة المغربية ودولة الامارات العربية المتحدة 1398.

[12] د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مصدر سابق ج9 ص 254 –255.

المعلمة الكبرى التي وفقني الله اخيرا إلي تحديد موقعها خارج مدينة فاس ـ كما قلت ـ بمساعدة المتخصصين من ذوي الغيرة والخبرة.[13]

ثانياً: الوقوف خارج مدينة القاهرة على الخانقاة الموجودة في سيرياقوص ذاتها، لاعرف وجوه الشبه بين المعلمتين الحضارتين، ولم اكن استبعد ابدا ان اصداء الخانقاة التاصرية بلغت مسمع ابي عنان عن طريق السفارات المتبادلة باستمرار بين مصر والمغرب حيث ان الجسور ظلت قوية بين الجهتين وخاصة في تلك الفترة التي غطاها امثال ابن خلدون والقلقشندي اكمل تغطية...

فهل لنا هذا ان نؤمل في تحريك اوراش للعمل هنا في المغرب وهناك في مصر من اجل احياء هاتين المؤسستين اللتين اعتقد انهما من اهم المعالم الآثارية التاريخية الاسلامية في العصر الوسيط من التي يحق لنا ان نذكرها باعتزاز كبير على نحو ما نذكر الدور الذي قام به جامع القرويين بفاس وجامع الازهر بالقاهرة لاسيما وانهما (أي الزاويتين) ـ لولا معلومة الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي أبرزهما بشكل مثير ـ كادتا ان لاتذكر نهائيا في عداد ما كان لنا بالامس القريب من صروح حضارية عظيمة بالغة، فماذا عن رأي الوزارتين الوصيتين، وخاصة بعد ان وقع المغرب ومصر على عشرات الاتفاقيات التي كانت دعوة إلي التعاون في شتى الحقول وخاصة منها الحقل الثقافي؟

[13] د. التازي: اكتشاف الزاوية المتوكلية التي تحدث عنها ابن بطوطة في تحفة النظار، جريدة الاتحاد الاشتراكي 12 نونبر 1998. الزاوية المتوكلية العظمى على وادي فاس، نشرة (البرج) كانت تصدرها المفتشية الجهوية بفاس عام 2001م.